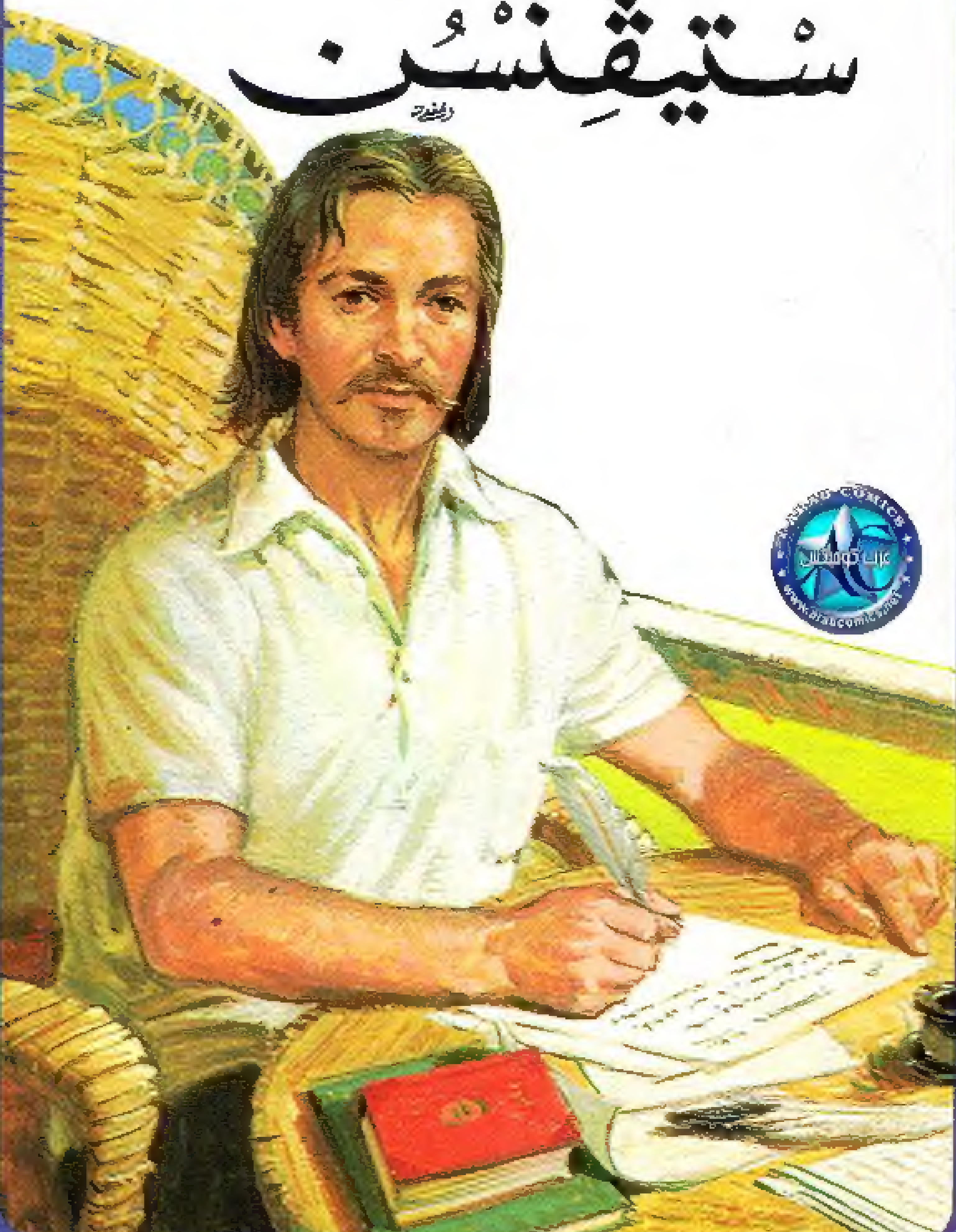
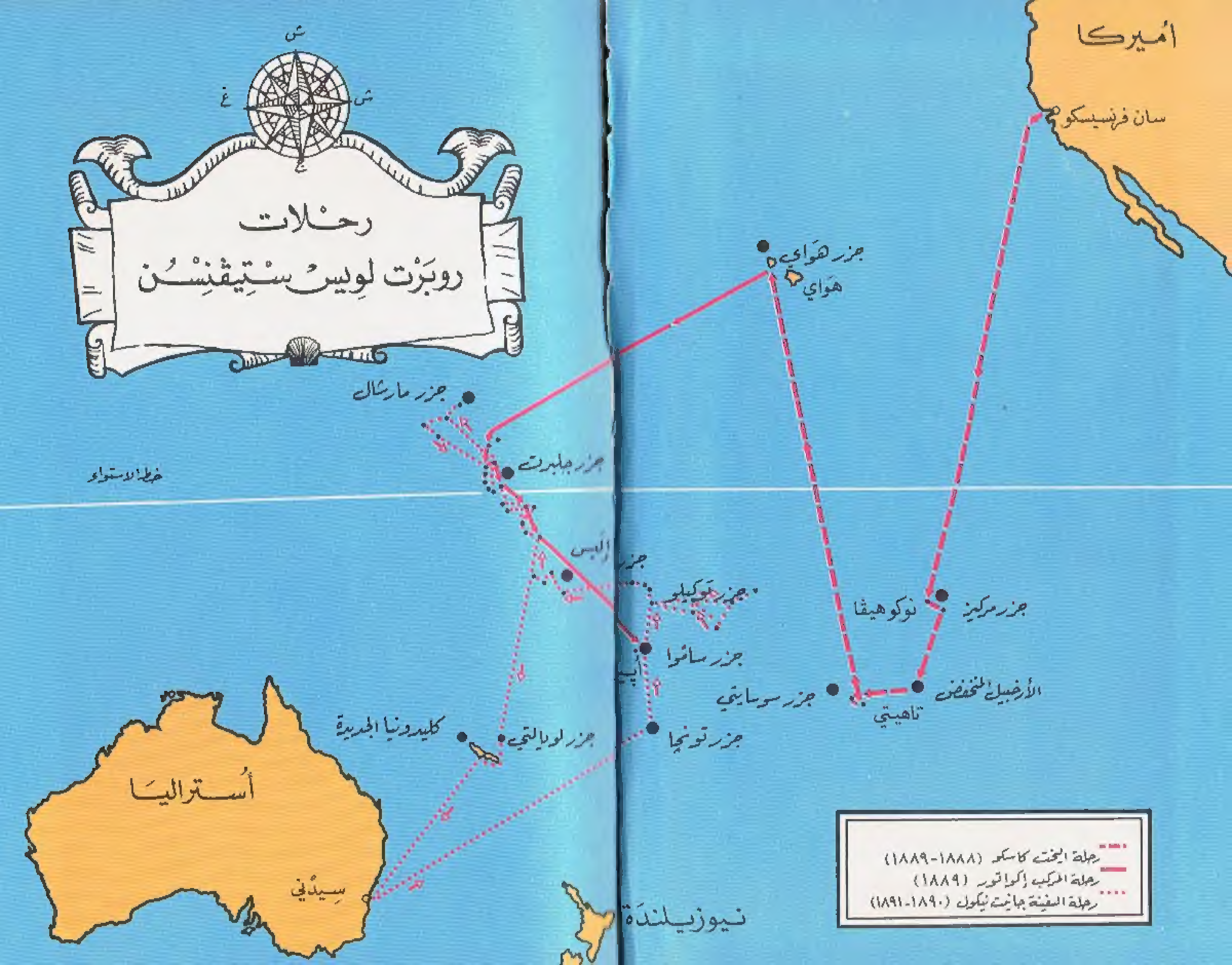
روبَرت لويسْ سْتيفِنسُن



Arabcomics.net


رحلات
روبرت لويس ستيفنسن
ش
غ
ش
ج
أميركا
سان فرنسيسكو
جزر هَواي
هَواي
جزر مارشال
جزر جلبرت
خط الاستواء
جزر الّيس
جزر توكيلو
جزر ساموا
أبيا
جزر تونجا
جزر مركيز
نوكوهيفا
الأرخبيل المنخفض
تاهيتي
جزر سوسايتي
كليدونيا الجديدة
جزر لويالتي
أستراليا
سيدني
نيوزيلندة
رحلة اليخت كاسكو (١٨٨٨-١٨٨٩)
رحلة المركب إكواتور (١٨٨٩)
رحلة السفينة جانيت نيكول (١٨٩٠-١٨٩١)

هٰذِهِ قِصَّةُ أَديبٍ كَبيرٍ من أُدَباءِ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ. وهِيَ قِصَّةٌ لا تَحكي فَقَطْ سيرَةَ حَياةِ الأَديبِ وَحْدَهُ ، وإِنَّما تُعَرِّفُنا بِعَصْرِه وحياةِ ذٰلِكَ العَصْرِ وأَهْلِهِ.

وتَمْتازُ حَياةُ ذٰلِكَ الأَديبِ أَنَّها كانَتْ مُغامَرَةً مُتَّصِلَةً ، سَواءٌ في مُحارَبَتِهِ الشُّجاعَةِ لِلْمَرَضِ الصَّدْرِيِّ الَّذي كانَ يَنْتابُهُ بَيْنَ حينٍ وحينٍ ، أو في تَوْقِهِ الدّائِمِ لاكْتِشافِ آفاقٍ جَديدَةٍ ، أَوْ في رَغْبَتِهِ العَميقَةِ في الاتِّصالِ بِالطَّبيعَةِ والتَّعَلُّقِ بِالأَوْطانِ ومَحَبَّةِ الإِنْسانِ.

© حُقوق الطبْع محفوظة
طُبعَ في انكلترا
١٩٨٢

السلسلة التاريخية

روبرت لويس ستيفنسن

تأليف: بارْبَرَه بريل
رسوم: رُوجر هُول
نقلته إلى العربية: بهيّة كرم



مَكتبة لبنان



هٰذِهِ قِصَّةُ رَجُلٍ وُلِدَ في أَدِنْبَرَة في اسْكُتْلَنْدا. وبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ أَمْضى أَواخِرَ أَيّامِ حَياتِهِ في جُزُرِ البَحْرِ الجَنوبِيِّ ونَعِمَ بِشَمْسِها ودِفْئِها، لَمْ يَكُفَّ عَنِ الحَنينِ إلى وَطَنِهِ والتَّفْكيرِ فيهِ. وفي ساموْا – حَيْثُ قَضى نَحْبَهُ – كانَ خَدَمُهُ مِنْ مُواطِني الجَزيرَةِ يُلَقِّبونَهُ بِـ «تُوسيتالا» وهْيَ تَعْني «راوِيَةَ الحِكاياتِ». ذٰلِكَ لِأَنَّهُ كانَ مُؤَلِّفًا لِلْقِصَصِ، وكانَ مَعْروفًا لَدى العالَمِ كُلِّهِ بِاسْمِ رُوبِرْت لويس سْتيفِنْسُن، مُؤَلِّفِ قِصَّةِ «جَزيرَة الكَنْز» وقِصَّةِ «المَخْطوفون» وكَثيرٍ غَيْرِهِما.

وسيرَةُ سْتيفِنْسُن طَريفَةٌ طَرافَةَ قِصَصِهِ الَّتي كَتَبَها. تَبْدَأُ عِنْدَما وُلِدَ عامَ ١٨٥٠ في أَدِنْبَرَة. وكانَ جَدُّهُ ووالِدُهُ مُهَنْدِسَيْنِ مَدَنِيَّيْنِ تَخَصَّصا في العَمَلِ فَوْقَ أَنْهارِ اسْكُتْلَنْدا ومَوانِئِها وفي بِناءِ المَنائِرِ. وكانَ مِمّا بَناهُ مَنارَةُ «بِل رُك» الَّتي كانَتْ أَوَّلَ مَنارَةٍ تُقامُ في مَوْقِعٍ تَغْمُرُهُ مِياهُ المَدِّ غَمْرًا تامًّا.

وكَثيرًا ما كانَ والِدا سْتيفِنْسُن يَقومانِ بِرِحْلاتٍ مِن اسْكُتْلَنْدا إلى جَنوبِ إِنْكِلْترا أَوْ فَرَنْسا بَحْثًا عَنِ الدِّفْءِ، إِذْ كانَتْ والِدَتُهُ ضَعيفَةَ البِنْيَةِ لا تَتَحَمَّلُ البَرْدَ. أَمّا طِفْلُهُما الوَحيدُ – وكانا يَدْعُوانِهِ بِاسْمِهِ الثّاني لويس – فَقَدْ كانَ يُتْرَكُ في رِعايَةِ مُرَبِّيَةٍ فاضِلَةٍ وَفِيَّةٍ تُدْعى أَليسون كَنِنْجهام، أَوْ كَما كانَ يَدْعوها لويس «كَمي».

وشَبَّ لويس – مِثْل والِدَتِهِ – ضَعيفَ البِنْيَةِ ، يُعاني كَثيرًا مِنْ نَزَلاتِ البَرْدِ والسُّعالِ. وقَدْ أَمْضى جُزْءًا كبيرًا مِنْ طُفولَته حَبيسًا داخِل حُجْرَتِهِ يَلْعَبُ مَعَ مُرَبِّيَتِهِ بِدُمًى على هَيْئَةِ جُنودٍ ، أَوْ بِلُعْبَةٍ عَلى هَيْئَةِ مَسْرَحٍ صَغيرٍ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ. وكَثيرًا ما كانَتْ نَوْباتُ السُّعالِ تُؤَرِّقُهُ. فكانَتْ كَمي تَجْلِسُ بِجوارِ فِراشِهِ لَيْلًا تَقُصُّ عَلَيْهِ قِصَصًا ، فلا يَشْعُرانِ بِطُلوعِ الصَّباحِ إلّا عِنْدَما يَسْمعانِ العَرَباتِ وهْيَ تَدْخُلُ المَدينَةَ. أَمّا أَثْناءَ النَّهارِ فكانا يَطَّلِعانِ مَعًا على كُتُبٍ مُصَوَّرَةٍ. كَمَا عَلَّمَتْهُ كَمي أَنْ يَحْفَظَ الشِّعرَ وَيَتْلُوَهُ ، وهْوَ بَعْدُ في الثّالِثَةِ مِنْ عُمْرِهِ. كَذٰلِكَ كانَ ضِمْنَ لَهْوِهِمَا التَّظاهُرُ بِأَنَّهُمَا في الكَنيسَةِ فيَقْلِبانِ مَقْعَدًا ويَسْتَعْمِلانِهِ كَمِنْبَرٍ.

وكانَ لويس شَغوفًا بِمُراقَبَةِ مُوْقِدِ المَصابيحِ وهْوَ يَضَعُ سُلَّمَهُ لِيُضيءَ المَصابيحَ خارِجَ المَنْزِلِ. ومَرَّتْ أَعْوامٌ عَديدَةٌ كَتَبَ لويس بَعْدَها كِتابًا دَعاهُ «حَديقَةَ أَشْعارٍ لِلأَطْفالِ» وفيهِ قَصيدَةُ «مُوْقِد المَصابيحِ» ، وهٰذا مَطْلَعُها :

ميعادُ الشّايِ قد وافى
وقُرْصُ الشَّمْسِ قَدْ غابَ.
جاءَ وَقْتُ الوُقوفِ في النّافِذَةِ فإنَّ ليري آت.
في كُلِّ عَشِيَّةٍ يَأْتي ليري وَقْتَ احْتِساءِ الشّاي.
في يَدِهِ فانوس ،
وعَلى كَتِفِهِ سُلَّمٌ يَتَسَلَّقُهُ إلى المَصابيحِ.



ولَمّا بَلَغَ لوِيس السّادِسَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، انْتَقَلَتْ عائِلَتُهُ إلى مَنْزِلٍ يَقَعُ قَرِيبًا مِنْ وَسَطِ أَدِنْبَرَة . وكانَ بُوب ، أَحَدُ أَوْلادِ عَمٍّ لوِيس ، والَّذي أَصْبَحَ رَسّامًا فيمَا بَعْدُ ، كَثيرًا ما يَزورُهُمْ في مَنْزِلِهِمْ هٰذا . وكانَ الصَّبِيّانِ يَلْهُوانِ مَعًا ، فَيَقومانِ بِتَلوِينِ المَناظِرِ والأَشْخاصِ لِلْمَسْرَحِ الصَّغيرِ حَيْثُ كانا يَعْرِضانِ أَمْثالَ قِصَّةِ «الطَّحّانُ ورِجالُهُ» وقِصَّةِ «جاك ذو الأَصابِعِ الثَّلاثِ» . وكانَتْ حَوانيتُ أَدِنْبَرة تَعْرِضُ لِلْبَيْعِ صُوَرَ سُفُنٍ وقِلاعٍ وغاباتٍ ، بَعْضُها مُلَوَّنٌ والبَعْضُ غَيْرُ مُلَوَّنٍ ، وكانَ الصَّبِيّانِ يُفَضِّلانِ الصُّوَرَ غَيْرَ المُلَوَّنَةِ لِيَنْعَمَا هُمَا بِتَلْوِينِها بِالأَلْوانِ الزّاهِيَةِ مِنْ عُلَبِ الأَلْوانِ الَّتي يَمْلِكانِها .

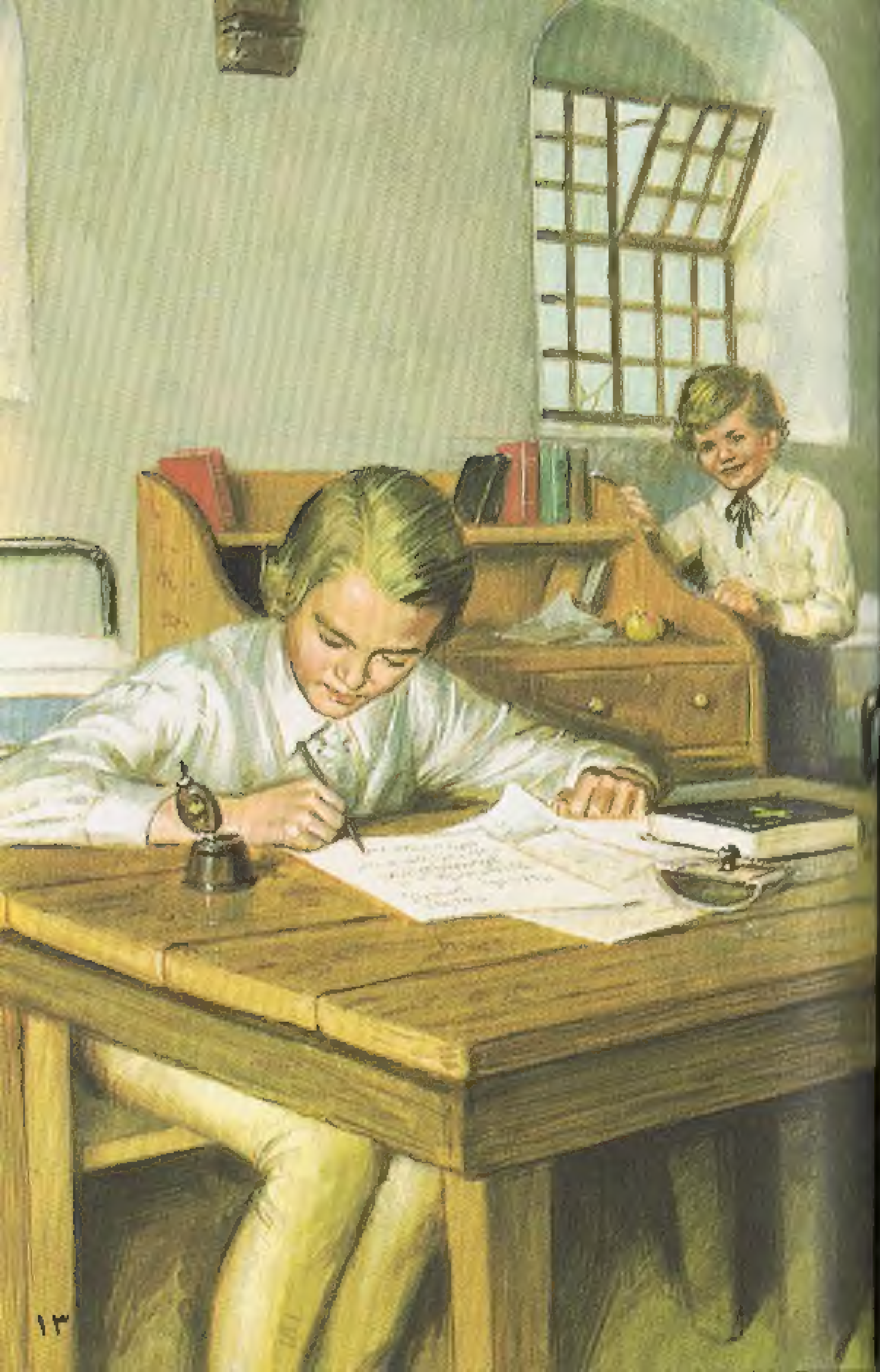
وكانَ لِبُوب ولوِيس أَنْشِطَةٌ أُخرى مُحَبَّبَةٌ لَدَيْهِمَا ، فكانا يَرْسُمَانِ خَرائِطَ لِمَمالِكَ وَهْمِيَّةٍ ويَتَخَيَّلانِ أَنَّهُمَا يَحْكُمَانِ تِلْكَ المَمالِكَ ، وأَنَّ هٰذِهِ المَمالِكَ في قِتالٍ ، ويَتَصَوَّرانِ القُدورَ حُصونًا وقِلاعًا ، ويَجْعَلانِ مِنَ السُّكَّرِ ثَلْجًا يَتَساقَطُ ومِنَ الحَليبِ سَيْلاً يَفيضُ ويُغْرِقُ . وبَقِيَ الاثْنانِ صَديقَيْنِ حَميمَيْنِ على مَدى سَنَواتٍ عَديدَةٍ أَصْبَحَ خِلالَها لوِيس كاتِبًا شَهيرًا وبُوب رَسّامًا ناجِحًا مَرْموقًا .





وعِنْدَما كانَ لويس يَذْهَبُ لِزِيارَةِ مَنْزِلِ جَدِّهِ لِوالِدَتِهِ في كلنتون في ضَواحي أدِنْبَرَة ، كانَ يَلْهو مَعَ كَثيرينَ مِنْ أَبْناءِ أَخْوالِهِ وخالاتِهِ. وكانَ جَدّهُ العَجوزُ لويس بَلْفور قِسّيسًا يَعيشُ مَعَ ابْنَتِهِ الَّتي كانَتْ أَحَبَّ خالاتِ لويس الصَّغيرِ إِلَيْهِ. أَمَّا المَنْزِلُ فكانَ فَسيحًا يَحْتَوي عَلى اسْطَبْلاتٍ لِلْخَيْلِ وسَقيفَةٍ لِعَرَبَةِ الجَدِّ. وكانَتْ حَديقَةُ المَنْزِلِ مائِلَةً تَصِلُ إلى ساقِيَةٍ وطاحونَةِ ماءٍ. فيَنْزِلُ الأَوْلادُ إلى تِلْكَ الطّاحونَةِ فيَلْعَبونَ ويَتَخَيَّلونَ أَنْفُسَهُمْ هُنودًا حُمْرًا أَوْ صَيّادينَ أَوْ جُنودًا. وكَثيرًا ما كانوا يَقْتَحِمونَ السَّدَّ النَّباتِيَّ الفاصِلَ بَيْنَ الحَديقَةِ والسّاقِيَةِ ، ويَسْتَرِقونَ النَّظَرَ إلى مِياهِ المَجْرى العَكِرَةِ. وكانوا يَتَخَيَّلونَ سَحَرَةً يَسيرونَ في الطَّريقِ المُظْلِمِ المُحاذي لِلْحائِطِ المُحيطِ بِالمَدافِنِ ، كَمَا كانوا يَتَخَيَّلونَ أَنَّ هُناكَ قُوَّةً خَفِيَّةً سِحْرِيَّةً تَحْتَ ظِلالِ شَجَرَةِ اللَّيْلَكِ الواقِعَةِ وَسَطَ الحَديقَةِ.

أَحَبَّ لويس المَنْزِلَ كَمَا أَحَبَّ حَديقَتَهُ. وكانَتْ خالَتُهُ تَعْطِفُ عَلَيْهِ فتَبْتَدِعُ لَهُ دائِمًا طُرُقًا لِلْمُتْعَةِ والتَّسْلِيَةِ. ولَمّا اشْتَرَتْ لَهُ صُنْدوقًا مِنَ الجُنودِ الدُّمى ، عَلَّمَهُ جَدُّهُ كَيْفَ يَصُفُّهُمُ اسْتِعْدادًا لِلْحَرْبِ والقِتالِ.



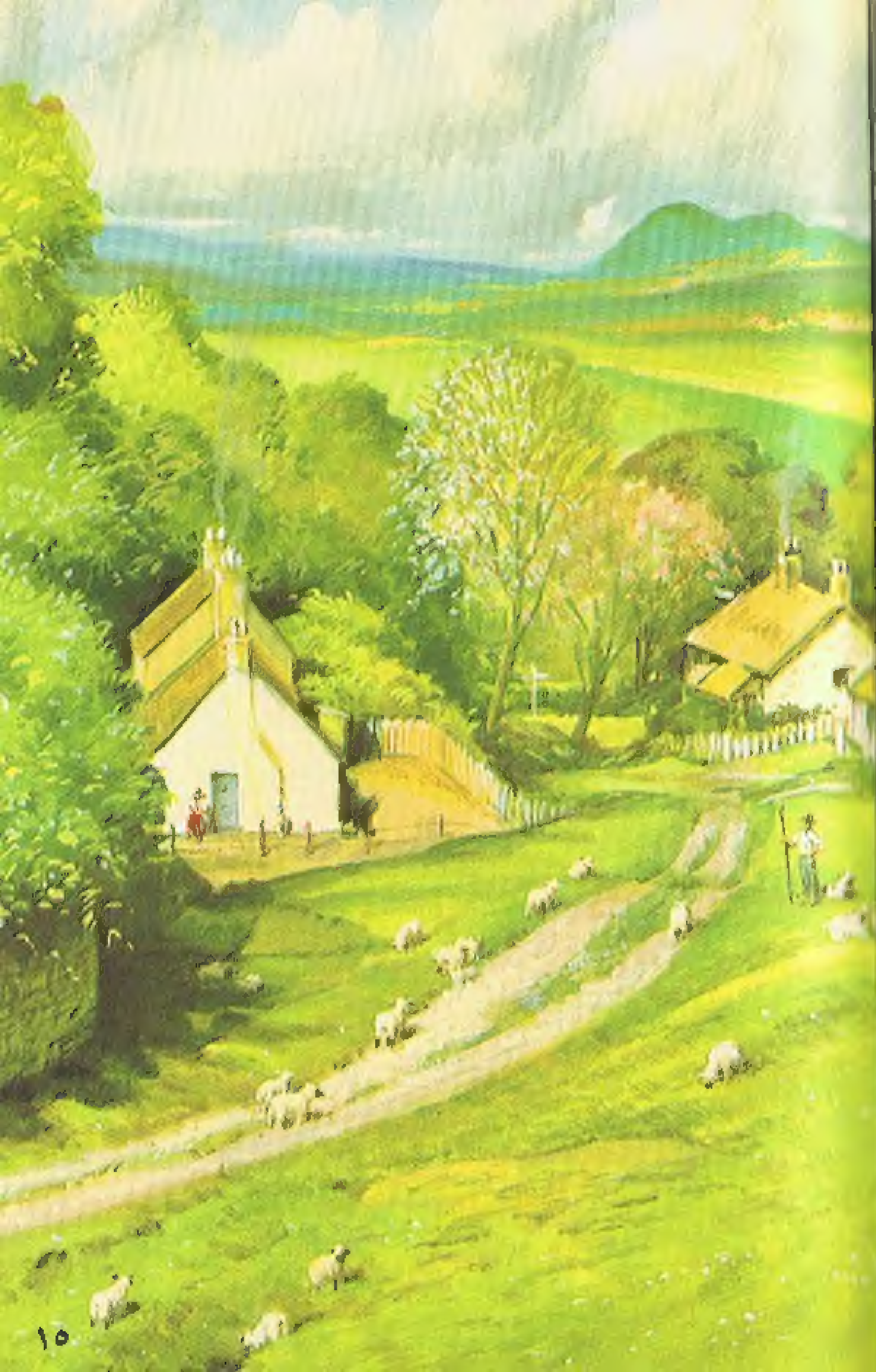
ولَمْ يَقْضِ لويس كُلَّ وَقْتِهِ في العَبَثِ واللَّعِبِ؛ فعِنْدَما بَلَغَ السّابِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، وبالرَّغْمِ مِنْ ضُعْفِ بِنْيَتِهِ ، أَرْسَلَهُ أَبوهُ إلى المَدْرَسَةِ ، وكانَتْ قَريبَةً مِنَ المَنْزِلِ. إلّا أَنَّهُ كانَ يَعْجِزُ عَنِ الذَّهابِ إِلَيْها في بَعْضِ الأَوْقاتِ بِسَبَبِ اعْتِلالِ صِحَّتِهِ ، فيَحْضُرُ إِلَيْهِ مُدَرِّسٌ خاصٌّ في المَنْزِلِ. وفي أَحَدِ فُصولِ الدِّراسَةِ كانَ والِداهُ في رِحْلَةٍ خارِجَ البَلَدِ فأُرْسِلَ إلى مَدْرَسَةٍ داخِلِيَّةٍ تَقْرُبُ مِنْ لَنْدَن حَيْثُ كانَتْ أَحَبُّ خالاتِهِ إِلَيْهِ تَقْطُنُ حينَذاكَ. ولَمْ يَكُنْ لويس سَعيدًا في المَدْرَسَةِ الدّاخِلِيَّةِ فكَتَبَ لِوالِدِهِ يَقولُ: «والِدي العَزيزَ ، لَقَدْ وَعَدْتُكَ أَنْ أُصارِحَكَ كُلَّما وَجَدْتُ نَفْسي تَعيسًا؛ وأَنا هُنا لا أَشْعُرُ بِالهَناءَةِ وأَصْبُو إلى أَنْ أَكونَ بَيْنَكُمْ ، فأَرْجو أَنْ تَصْحبوني مَعَكُمْ.»

بَعْدَها عادَ إلى أَدِنْبُرة والْتَحَقَ بِمَدْرَسَةٍ أُخْرى بَقِيَ فيها حَتّى حانَ وَقْتُ الْتِحاقِهِ بِالجامِعَةِ. وقَدْ أَرادَ لَهُ والِدُهُ أَنْ يَكونَ مُهَنْدِسًا مَدَنِيًّا ويَسيرَ عَلى نَمَطِ أُسْرَتِهِ ، ولٰكِنَّ لويس كانَ لَهُ رَأْيٌ آخَرُ؛ فَقَدْ كانَ عاقِدًا العَزْمَ عَلى أَنْ يَكونَ كاتِبًا. وكانَ صَبِيًّا ذَكِيًّا ، ناجِحًا في دُروسِهِ ، خُصوصًا في الأَدَبِ الإِنْكليزِيِّ واللّاتينِيَّةِ.

تَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ وأَصْبَحَ رائِدًا بَيْنَ أَقْرانِهِ في المَدْرَسَةِ ، يَتَزَعَّمُ لُعَبَهُمْ ويُدَبِّرُ مَقالِبَهُمْ ، كَما صارَ بِإِمْكانِ والِدَيْهِ أَنْ يَصْحَباهُ مَعَهُما في تَرْحالِهِما.

ولَمّا بَلَغَ الثّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، صَحِبَهُ والِدُهُ في رِحْلَةٍ تَفْتيشِيَّةٍ لِلْمَنارات الواقِعَةِ على شَواطِئِ نَهْرِ الفايف. وبَعْدَ مُرورِ أَرْبَعِ سَنَواتٍ بَدَأَ دِراسَتَهُ في جامِعَةِ أَدِنْبَرَة لِيَحْصُلَ عَلى دَرَجَةٍ في العُلومِ. أَمّا أَثْناءَ عُطْلاتِ فَصْلِ الصَّيْفِ فَقَدْ كانَ يُشارِكُ العُمّالَ الّذينَ يَعْمَلونَ تَحْتَ إِشْرافِ والِدِهِ العَمَلَ في المَوانِئِ والمَنائِرِ.

أَحَبَّ لويس الدِّراسَةَ في الجامِعَةِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَبْذُلْ كُلَّ ما يَسْتَطيعُ مِنْ جَهْدٍ في العِلْمِ والتَّحْصيلِ. وقَدْ كَوَّنَ روابِطَ صَداقَةٍ مَعَ كَثيرٍ مِنْ أَقْرانِهِ واسْتَضافَهُمْ في مَنْزِلِ والِدَيْهِ ، بالرَّغْمِ مِنْ رَغْبَتِهِ المُتَزايِدَةِ وتَوْقِهِ إلى الاسْتِقْلالِ بِنَفْسِهِ. رَحَّبَ والِداهُ بأَصْدِقائِهِ كُلَّ التَّرحيبِ ، واسْتَأْجَرَ لَهُ والِدُهُ بَيْتًا قَريبًا مِنْ أَدِنْبَرَة كَيْ يُمْضي فيهِ أَوْقاتَ عُطْلاتِهِ. وهُناكَ ، أَمْضى لويس كَثيرًا مِنَ الأَوْقاتِ وَحْدَهُ أَوْ بِصُحْبَةِ بَعْضِ رِفاقِهِ. وكانَ ابْنُ عَمِّهِ بوب يَصْحَبُهُ إلى هُناك كُلَّما عادَ مِنْ جامِعَةِ كامْبردج. وسُرَّ لويس أَنْ يَجِدَ مَنْ يُفْصِحُ لَهُ عَمّا كانَ يَكُنُّ في صَدْرِهِ ، فقَدْ تَيَقَّنَ بِأَنَّهُ لَنْ يَصْلُحَ لأَنْ يَكونَ مُهَنْدِسًا ، ولا يَطْمَحُ إلّا أَنْ يَصيرَ كاتِبًا ، ولٰكِنَّهُ كانَ يَخافُ أَنْ يُخَيِّبَ آمالَ والِدِهِ فيهِ. ثُمَّ كانَتِ المُفاجَأَةُ حينَ رَحَّبَ والِدُهُ بِالفِكْرَةِ. وبَعْدَ تَبادُلِ الآراءِ تَقَرَّرَ أَنْ يَسْتَمِرَّ لويس في الذَّهابِ إلى الجامِعَةِ ويَدْرُسَ القانونَ حَتّى يَكونَ لَدَيْهِ مِهْنَةٌ يَكْتَسِبُ مِنْها عَيْشَهُ إلى أَنْ يَنْجَحَ في مِهْنَةِ الكِتابَةِ.

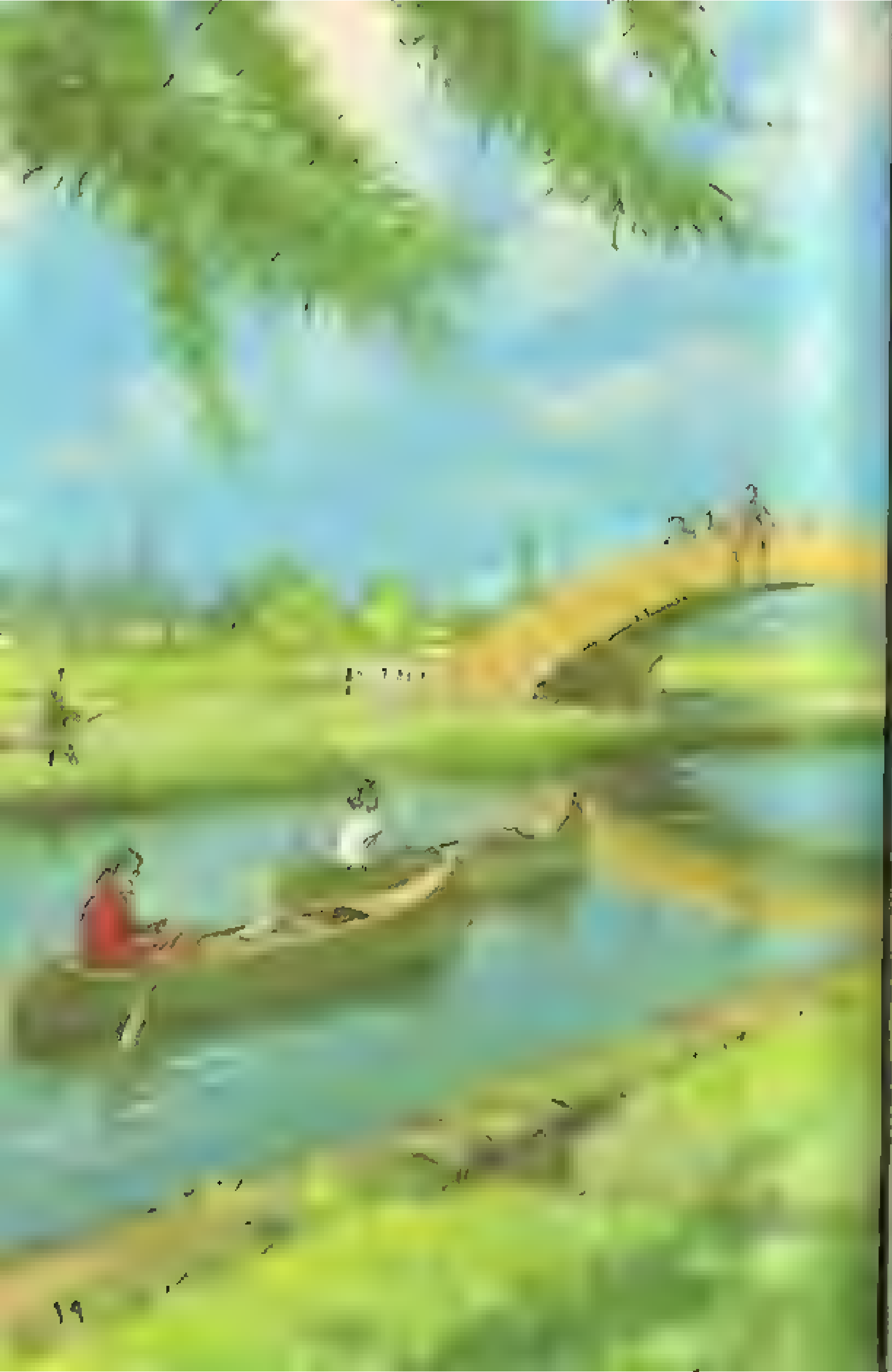


بَدَأَ لويس في الكِتابَةِ أَثْناء دِراسَتِهِ القانونَ. فكانَ يَحْمِلُ مَعَهُ دَفْتَرًا أَيْنَمَا ذَهَبَ، يُدَوِّنُ فيهِ كُلَّ ما يَعِنُّ لَهُ مِنْ أَفْكار وانْطِباعاتٍ حَوْلَ الأَشْخاصِ والأَشْياءِ الَّتي كانَ يُصادِفُ أَثْناءَ سَيْرِهِ في الطَّريقِ. ولَمْ يَرْضَ أَبوهُ عَنْ تَجْوالِهِ في أَزِقَّةِ أَدِنْبَرَة ودُخولِهِ حاناتِها والتَّحَدُّثِ إلى الفُقَراءِ الَّذينَ كانَ يُلاقيهِم، كَذٰلِكَ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَراهُ مُرسِلًا شَعْرَهُ الطَّويلَ ولابِسًا سُتْرَةً فَضْفاضَةً مِنَ القَطيفَةِ وقُبَّعَةً عَريضَةً واسِعَةً. وكَمْ تَمَنّى لَوْ أَنَّ ابْنَهُ كانَ كَسائِرِ أَوْلادِ أَصْدِقائِهِ المُحْتَرَمين.

وبَدَأَ لويس يَلْتَقي بِكُتّابٍ ومُؤَلِّفينَ آخَرينَ، واعْتَرَفَ لَهُ الكُلُّ بِخِفَّةِ الرّوحِ وبَراعَةِ الحَديثِ. كَمَا حازَ إِعْجابَ أَحَدِ أَساتِذَةِ جامِعةِ كامْبْردج – سِيدْني كالْفِن – الَّذي أَصْبَحَ فيمَا بَعْدُ مِنْ أَقْرَبِ أَصْدِقائِهِ وأَخْلَصِهِمْ.

وكانَ لويس لا يَزالُ يُعاني مِنْ نَزَلاتِ البَرْدِ والسُّعالِ الشَّديدِ، لِذا كانَتْ شُهورُ الشِّتاءِ في أَدِنْبَرَة قاسِيَةً جدًّا. وحينَ كانَ في الثّانِيَةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ اشْتَدَّ عَلَيْهِ المَرَضُ فأَمَرَهُ طَبيبُهُ بِالذَّهابِ إلى مِنْطَقَةٍ في جَنوبِ فَرَنْسا حَيْثُ لَحِقَ بِهِ فيمَا بَعْدُ أُسْتاذُهُ وصَديقُهُ كالْفِن. هُناكَ تَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ وأَصْبَحَ قادِرًا عَلى العَوْدَةِ إلى الجامِعَةِ كَيْ يُؤَدّي امْتِحانَهُ النِّهائِيَّ في القانونِ. وكَمْ كانَتْ فَرْحَةُ والِدَيْهِ بِهِ عِنْدما وُضِعَ عَلى بابِ الدّارِ الخارِجِيِّ لافِتَةٌ تُعْلِنُ لِلْمَلَإِ أَنَّ الشّابَّ أَصْبَحَ مُحامِيًا.





لَمْ يَسْتَقِرَّ سْتيفِنْسُن طَوِيلاً في مُزاوَلَةِ مِهْنَةِ القانونِ . فَقَدْ مَنَحَهُ والِدُهُ مُرَتَّبًا صَغيرًا جَعَلَهُ يَشْعُرُ بِعَدَمِ ارْتِباطِهِ جِدِّيًّا بِاخْتِصاصِهِ ، وبَدَأَ الكِتابَةَ والتَّرْحالَ ونُشِرَتْ لَهُ مَقالاتٌ وقِصَصٌ قَصيرَةٌ في بَعْضِ المَجَلّاتِ . وكانَ قَدْ أَتَمَّ كِتابَةَ وَصْفِ «رِحْلَة داخِلِيَّة» ، وهِيَ رِحْلَةٌ طَريفَةٌ كانَ قَدْ قامَ بِها هُوَ وأَحَدُ أَصْدِقائِهِ في قارِبٍ صَغيرٍ مِنْ نَوْعِ الكانو عَبْرَ الأَنْهُرِ والقَنَواتِ بَيْنَ بلجيكا وفَرَنْسا .

كان/ قارِباهُما مَحَطَّ الأَنْظارِ أَيْنَما ذَهَبا . وفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ ، بَعْدَ هُطولِ مَطَرٍ غَزيرٍ ، انْقَلَبَ قارِبُ لويس بِهِ وَسَطَ مِياهِ الفَيَضانِ . فجَرَّ نَفْسَهُ ، وهُوَ لا يَزالُ مُمْسِكًا بِالمِجْذافِ ، حَتّى وَصَلَ إلى جِذْعِ شَجَرَةٍ طافٍ في النَّهْرِ . وجَلَسَ عَلى الجِذْعِ بَيْنَما حَمَلَ التَّيّارُ قارِبَهُ بِسُرْعَةٍ بَعيدًا عَنْهُ ، حَتّى أَمْسَكَهُ صَديقُهُ وأَعادَهُ إِلَيْهِ . أَخيرًا وَصَلا إلى قَرْيَةِ جريز الحَلّابَةِ الَّتي كانَتْ مَرْكَزًا مُحَبَّبًا لِتَجَمُّعِ الفَنّانينَ . وكانَ لويس قَدْ سَبَقَ أَنْ زارَ هٰذِهِ القَرْيَةَ الواقِعَةَ عَلى نَهْرِ لوينج مَعَ ابْنِ عَمِّهِ بوب حَيْثُ نَعِمَ بِحَياةٍ هانِئَةٍ مُتَحَرِّرَةٍ . وأَثْناءَ هٰذِهِ الزِّيارَةِ قابَلَ لويس شَخْصًا وَفَدَ حَديثًا إلى البَلْدَةِ ، وكانَ مُقَدَّرًا أَنْ يُغَيِّرَ لَهُ مَجْرى حَياتِهِ كُلِّها . ذٰلِكَ الشَّخْصُ كانَ السَّيِّدَةَ فاني أوزْبورن الَّتي كانَتْ تُقيمُ هُناكَ مَعَ ابْنِها لويْد وابْنَتِها إيزوبل .



فاني سَيِّدَةٌ أميركِيَّةٌ مِنْ وِلايَةِ كَليفورْنيا ، وكانَتْ قَدْ تَزَوَّجَتْ سام أُوزْبورْن وهْيَ في السّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها. ولَمّا قابَلَتْ لويس كانَتْ في السّادِسَةِ والثّلاثينَ وكانَ زَواجُها في طَريقِ الانْهيارِ. وقَدْ قامَتْ بِرِحْلَةٍ إلى أوروبّا مَعَ وَلَدَيْها كَيْ تَبْتَعِدَ عَنْ طَريقِ زَوْجِها وتَشْغَلَ نَفْسَها بِدِراسَةِ فَنِّ التَّلْوينِ. ومُنْذُ النَّظْرَةِ الأُولى نَشَأَ بَيْنَ فاني ولويس شُعورٌ مُتَبادَلٌ. وسُرْعانَ ما أَحَسَّ لويس بِأَنَّها هِيَ المَرْأَةُ الَّتي يَنْشُدُها لِتُشارِكَهُ الحَياةَ.

جَزِعَ والِدا لويس لِفِكْرَةِ زَواجِ وَلَدِهِما مِنِ امْرَأَةٍ مُطَلَّقَةٍ ، عَدا أَنَّها كانَتْ تَكْبُرُهُ سِنًّا. ونَصَحَهُ أَصْدِقاؤُهُ بِأَنْ يَظَلَّ طَليقًا حُرًّا يَكْتُبُ ويَتَجَوَّلُ دونَ تَحَمُّلِ مَسْؤولِيَّةِ فاني ووَلَدَيْها.

عادَتْ فاني إلى كَليفورْنيا لِتَبْحَثَ مَوْضوعَ الطَّلاقِ مَعَ زَوْجِها سام ، بَيْنَما رَحَلَ لويس إلى جِبال «السِّفّين» في فَرَنْسا حَتّى يَنْفَرِدَ هُناكَ بِأَفْكارِهِ ويَتَجَوَّلَ في المِنْطَقَةِ ويَكْتُبَ عَنْ رِحْلَتِهِ. اسْتَأْجَرَ حِمارًا حَمَّلَهُ أَمْتِعَتَهُ وبَدَأَ رِحْلَةً عَبْرَ الجِبالِ ، وَحيدًا مَعَ الحِمارِ. وقَدْ سَرَّهُ أَنْ يَنْعَمَ بِالهَواءِ الطَّلْقِ وأَنْ يَنامَ لَيْلَهُ في خَيْمَةٍ ، فَكَتَبَ :

أَعْطِني سَماءً صافِيَةً فَوْقي ، وطَريقًا أَمامي غَيْرَ مَطْروقٍ.
أَعْطِني مَهْدًا بَيْنَ الشُّجَيْراتِ ، ونُجومًا أَرى بِها خُبْزي ،
ونَهْرًا أَغْمِسُ فيهِ ذٰلِكَ الخُبْزَ. ذٰلِكَ هُوَ جُلُّ أَمَلي.
ويا حَبَّذا لَوْ قَضَيْتُ هُنا عُمْري ، فَهٰذِهِ أَفْضَلُ حَياةٍ.

صَمَّمَ سْتيفِنْسُن عَلى أَنْ يَلْحَقَ بِفاني في كَلَيفورْنيا بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ما نَصَحَهُ بِهِ أَبَواهُ وأَصْحابُهُ ، فَأَوْقَفَ والِدُهُ مُرَتَّبَهُ ، وأَصْبَحَ لويس ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ ، يَعْتَمِدُ عَلى ما يَكْسِبُهُ مِنْ كِتاباتِهِ. وكانَ ذٰلِكَ لا يَكادُ يَكْفي لِتَغْطِيَةِ نَفَقاتِهِ وَحْدَهُ ، فَما العَمَلُ وهُوَ مُقْبِلٌ عَلى تَحَمُّلِ نَفَقاتِ أُسْرَةٍ بِأَجْمَعِها؟

اضْطُرَّ أَنْ يُبْحِرَ بِأَرْخَصِ الطُّرُقِ كُلْفَةً ، فاسْتَقَلَّ باخِرَةَ مُهاجِرينَ قاصِدًا نيويُورْك. أَمْضى أَكْثَرَ وَقْتِهِ ، خِلالَ الأَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا عَلى ظَهْرِ تِلْكَ السَّفينَةِ ، في كِتابَةِ قِصَّةٍ قَصيرَةٍ وتَدْوينِ مُلاحَظاتِهِ عَنِ الرِّحْلَةِ.

مِن نيويُورْك تَوَجَّهَ بِالقِطارِ إِلى أَقْصى الغَرْبِ. وكانَتْ رِحْلَةً مُتْعِبَةً لِرَجُلٍ ضَعيفِ البِنْيَةِ مِثْلِ لويس. اِسْتَغْرَقَتْ تِلْكَ الرِّحْلَةُ البَرِّيَّةُ اثْنَي عَشَرَ يَوْمًا ، كانَ لويس في أَثْنائِها يَقْضي بَعْضَ وَقْتِهِ جالِسًا فَوْقَ سَطْحِ العَرَبَةِ يَرْنو إِلى السُّهولِ الشّاسِعَةِ أَمامَهُ.

وَصَلَ لويس كَليفورْنيا مَنْهوكَ القِوى ، عَليلًا. وأَخَذَ ضَعْفُهُ يَزْدادُ طَوالَ الأَشْهُرِ التِّسْعَةِ التّالِيَةِ. حاوَلَ أَنْ يَقْضِيَ بَعْضَ الوَقْتِ في الجِبالِ جَنوبَ مونْتِبري. ثُمَّ ذَهَبَ إِلى سان فْرَنْسيسْكو ، وهُناكَ أَقامَ في مَساكِنِ عُمّالٍ بِأَجْرٍ بَسيطٍ. وفي أَثْناءِ ذٰلِكَ كانَ يَكْتُبُ بِنَشاطٍ طَوالَ الوَقْتِ ويَبْعَثُ بِقِصَصِهِ إِلى أَصْدِقائِهِ في إِنْكِلْترا ، كَيْ تُباعَ هُناكَ.





أخيرًا، في رَبيع ١٨٨٠، أَصْبَحَتْ فاني طَلِيقَةً، حُرَّةً أَنْ تَتَزَوَّجَ لويس. ولٰكِنَّ مَرَضَ لويس كانَ قَدْ تَفاقَمَ في ذٰلِكَ الوَقْتِ تَفاقُمًا خَطيرًا. وعَلِمَ والِداهُ بِحالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ فَأَبْرَقا إِلَيْهِ يَعِدانِهِ بِمُرَتَّبٍ مُنْتَظَمٍ.

قامَتْ فاني بِتَمْريضِهِ حَتّى أَبَلَّ. وتَزَوَّجا في أَيّارَ (مايو) في سان فرَنْسيسكو، ثُمَّ ذَهَبا في رِحْلَةٍ إلى الشَّمالِ إلى جِبالِ سِلْڤَرادو أَمَلًا في أَنْ يَسْتَفيدَ لويس مِنَ الهَواءِ النَّقِيِّ. وكانَتِ ابْنَةُ فاني قد تَزَوَّجَتْ، ولَمْ يَبْقَ مَعَها غَيْرُ ابْنِها لُوِيْد. وقَدْ أَحَبَّ لُوِيْد زَوْجَ والِدَتِهِ، ووَجَدَ فيهِ قُدْرَةً عَجيبَةً على مُحاراتِهِ في لَهْوِهِ وفَهْمِ مُشْكِلاتِهِ.

كانت سِلْڤَرادو مِنْطَقَةً طالَما رَغِبَ الصَّبِيُّ في زِيارَتِها. ذَهَبوا إِلَيْها في عَرَبَةٍ مَرَّتْ بَيْنَ أَشْجارِ الصَّنَوْبَرِ حَتّى وَصَلَتْ إلى كُشْكٍ مُتَهَدِّمٍ. كانَ فيما سَلَفَ مَكْتَبًا لِمَنْجَمِ فِضَّةٍ وفي الطّابِقِ العُلْوِيِّ مِنْ ذٰلِكَ المَنْجَمِ المَهْجورِ وَجَدوا غُرَفًا تَحْتَوي على أَسِرَّةِ المُعَدِّنينَ. أَمّا المَنْظَرُ فَوْقَ التِّلالِ البَعيدَةِ فكانَ خَلّابًا.

سُرْعانَ ما أَحالَتْ فاني المَكانَ إلى بَيْتٍ مُريحٍ وساعَدَها لويس في ذٰلِكَ. فكانَ يَنْهَضُ مُبَكِّرًا ويُحَضِّرُ لَها الماءَ، ويَقْطَعُ الأَخْشابَ ويُعِدُّها لِلْمَوْقِدِ. ثُمَّ كانَ يَجْلِسُ لِيَسْتَريحَ ويَكْتُبَ في هُدوءٍ وسَلامٍ، وقَدْ تَماثَلَتْ صِحَّتُهُ حَقًّا.

بَعْدَ أَنِ اسْتَرَدَّ لويس صِحَّتَهُ وشَعَرَ بِقُدْرَتِهِ عَلى الرَّحيلِ ، عادَ هُوَ وفاني ولُويد إلى اسْكُتْلَنْدا ، وَطَنِهِ . وكانَ شَغوفًا بِأَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ والِدَيْهِ وزَوْجَتِهِ . وبَعْدَ رِحْلَةٍ مُريحَةٍ اخْتَلَفَتْ كُلَّ الاخْتِلافِ عَنِ الرِّحْلَةِ الَّتي سَبَقَ أَنْ قَطَعَها لويس وَحْدَهُ مُنْذُ عامٍ ، وَصَلوا إلى ليفَرْبُول وهُناكَ قابَلَهُمْ والِداهُ وصَديقُهُ سيدْني كالْفِن .

كانَتْ فاني تُفكِّرُ فيمَا عَسى أَنْ يَكونَ عَلَيْهِ لِقاؤُها مَعَ والِدَي لويس ، فَقَدْ كانَتْ نَشْأَتُها تَخْتَلِفُ كُلَّ الاخْتِلافِ عَنْ نَشْأَةِ حَماتِها المُحافِظَةِ . فَقَدْ نَشَأَتْ فاني في أُسْرَةٍ هُولَنْدِيَّةِ الأَصْلِ نَشْأَةً مُنْطَلِقَةً خَشِنَةً في بَراري الوَسَطِ الأَميرِكِيِّ ، وتَطَبَّعَتْ بِطِباعِ الصِّبْيَةِ . وكانَتْ لا تَزالُ حَتّى ذلِكَ الوَقْتِ قَصيرَةَ الشَّعْرِ تُدَخِّنُ السَّجائِرَ . وكانَتْ ، بِبَشَرَتِها السَّمْراءِ ويَدَيْها الخَشِنَتَيْنِ الصَّغيرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَعَوَّدَتا العَمَلَ في المَطْبَخِ والزِّراعَةِ والحِياكَةِ ، تَبْدو أَقْرَبَ إلى امْرَأَةٍ غَجَرِيَّةٍ مِنْها إلى سَيِّدَةٍ حَضَرِيَّةٍ .

ولَمْ يَكُنْ لِمَخاوِفِها أَيُّ داعٍ ، فَقَدْ رَحَّبَ بِها والِدا لويس كُلَّ التَّرْحابِ وتَقَبَّلاها زَوْجَةً لابْنِهِما بِكُلِّ حَمْدٍ وثَناءٍ ، خُصوصًا بَعْدَ أَنْ شَعَرا قُوَّةَ حُبِّها لِلويس وإِخْلاصِها لَهُ . كَذلِكَ رَحَّبا وسَرَّهُما أَنْ يَكونَ في البَيْتِ فَتًى لَطيفٌ وبَعْدَ أَنْ أَمْضَوْا بِضْعَةَ أَسابيعَ في أَدِنْبَرَة ، ذَهَبَ الجَميعُ إلى الجِبالِ حَيْثُ سَعِدَ لويس بِرُؤْيَةِ الجِبالِ والأَوْدِيَةِ والبُحَيْراتِ ، وراقَتْ لَهُ ، وبَدَتْ أَكْثَرَ جَمالًا مِنْ ذي قَبْلُ

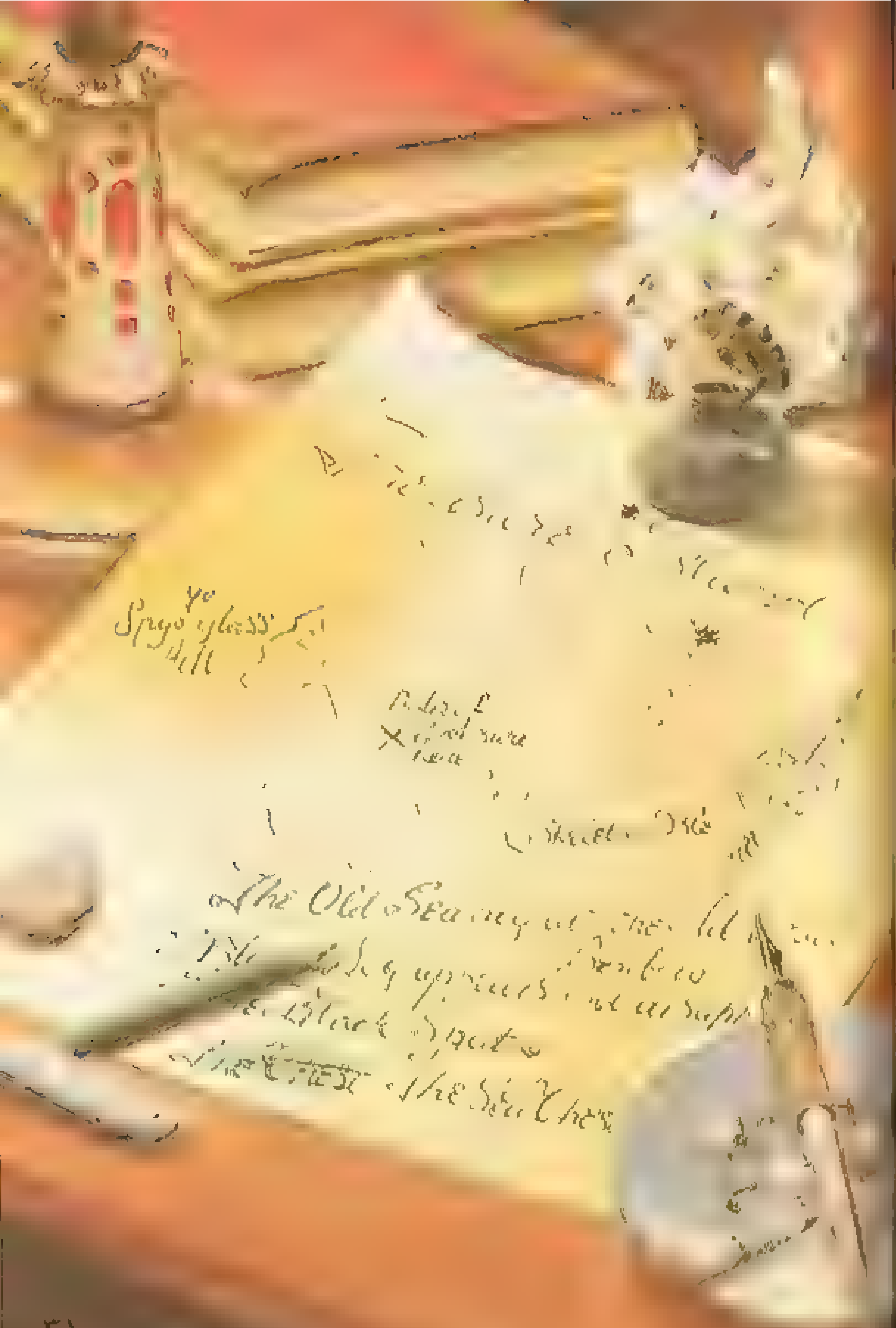




ولَمّا اقتَرَبَ الشِّتاءُ قرَّرَ الأَطِبّاءُ أنَّ جوَّ اسْكُتْلَنْدا البارِدَ الرَّطْبَ قَدْ يَضُرُّ بِصِحَّةِ لويس ، ونَصَحوهُ بالذَّهابِ إلى دافُوس في سويسْرا لِيَقْضِيَ فيها سِتَّةَ أَشْهُرٍ. وكانَتْ دافُوس مَصَحًّا يَؤُمُّهُ الكَثيرونَ مِنَ المَرْضى بِذاتِ الرِّئَةِ. ووافَقَ لويس على مَضَضٍ أنْ يُقيمَ في سويسْرا حَتّى حُلولِ الرَّبيعِ. وكان حَزينًا لِتَرْكِ اسْكُتْلَنْدا بَعْدَ مُدَّةٍ قَصيرَةٍ كَتِلْكَ الَّتي مَكَثَها فيها ، خُصوصًا وأَنَّهُ كانَ قَدْ بَدَأَ يَجْمَعُ بَعْضَ المَعْلوماتِ ويَسْتَعِدُّ لِوَضْعِ كِتابٍ عَنْ تاريخِ اسْكُتْلَنْدا.

وفي أَواخِرِ تِشْرينَ الأَوَّلِ (أُكتوبر) رَحَلَ لويس وفاني وأَخَذا مَعَهُما لُويْد. أَقامَ الجَميعُ في أَحَدِ الفَنادِقِ وكانَ وُجودُ لُويْد مِنْ عَوامِلِ السَّعادَةِ لِلويس . فكانَ يَصْحَبُهُ مَعَهُ يَوْمِيًّا لِلتَّرَيُّضِ ، تارِكًا الفُنْدُقَ بِمَنْ فيهِ مِنْ نُزَلاءَ مُعْظَمُهُمْ مَرْضى.

مَلَّ لويس الحَياةَ في دافُوس كَمَا شَعَرَ بِأَنَّ الجِبالَ حَوْلَهُ تكادُ تُطْبِقُ عَلَيْهِ بالرَّغْمِ مِنِ اشْتِراكِهِ في رِياضَةِ التَّزَلُّجِ. ومَعَ أَنَّ صِحَّتَهُ تَحَسَّنَتْ لَمْ تَكُنْ فاني تَسْمَحُ لَهُ بِالكِتابَةِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِ ساعاتٍ يَوْمِيًّا. واسْتَمَرَّتْ تَسْهَرُ عَلَيْهِ وتُعْنى بِهِ حَتّى لا يَقَعَ أَبَدًا فَريسَةً لِلإِجْهادِ والتَّعَبِ.



عادَ لويس مَعَ فاني إلى اسْكُتْلَنْدا في الرَّبيعِ التّالي ونَزَلوا في كوخٍ اسْتَأْجَراهُ لِمُدَّةِ شَهْرَيْنِ. وبالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هُطولَ الأَمْطارِ كادَ أَنْ يَكونَ مُتواصِلًا، فقَدْ قَنِعا بِأَنْ يَقْبَعا داخِلَ الكوخِ ويُطِلّا مِنْ نافِذَتِهِ عَلى البَرِّيَّةِ ذاتِ اللَّوْنِ البَنَفْسَجِيِّ الَّتي تُحيطُ بِهِما. وأَمْضَيا الوَقْتَ في كِتابَةِ قِصَصِ الأَشْباحِ والغَوامِضِ، ومِنْ ضِمْنِها قِصَصٌ هِيَ مِنْ أَحْسَنِ ما كَتَبَ لويس، مِثْل «الرِّجالُ المَرِحونَ» و «خاطِفو الجُثَثِ».

وفي أَواخِرِ العامِ انْتَقَلوا إلى بريمار، وكانَ الجَوُّ لا يَزالُ رَديئًا. وفي أَحَدِ الأَيّامِ وَقَفَ لويس يَرْقُبُ لُويْد وهُوَ يَرْسُمُ خَريطَةً مِنْ خَيالِهِ، وشارَكَهُ في عَمَلِهِ ووَضَعَ عَلى الخَريطَةِ أَسْماءً مِثْلَ «جَزيرَة الهَيْكَلِ العَظْمِيِّ» و «تَلُّ مِنْظارِ لِتَحَسُّسٍ». وكَتَبَ في الرُّكْنِ الأَيْمَنِ في أَعْلى الخَريطَةِ «جَزيرَةَ الكَنْز». وفي الدَّقائِقِ التّالِيَةِ وَضَعَ في أَسْفَلِ تِلْكَ الخَريطَةِ قائِمَةً بِعَناوينِ فُصولٍ.

وما وافى الصَّباحُ التّالي حَتّى كانَ لويس قَدْ كَتَبَ الفُصولَ الثَّلاثَةَ الأُولى من قِصَّةٍ تَدورُ أَحْداثُها حَوْلَ تِلْكَ الجَزيرَةِ عَلى أَنْ تَكونَ قِصَّةَ مُغامَراتٍ لِلأَوْلادِ. وتَلا ما كَتَبَ عَلى لُويْد وفاني ووالِدَيْهِ. ولَمْ يَقِلَّ إِعْجابُ والِدَيْهِ المُسِنَّيْنِ عَنْ إِعْجابِ الصَّبِيِّ لُويْد. وعَلَيْهِ، قَرَّرَ لويس أَنْ يُكْمِلَ القِصَّةَ ويُحاوِلَ نَشْرَها. وكانَ أَوَّلَ اسْمٍ لَها وَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيارُهُ «طَبّاخُ البَحْرِ».



أُعْجِبَ صاحِبُ مَجَلَّةٍ تُدْعى «الشّباب» بِالفُصولِ الافْتِتاحِيَّةِ لِقِصَّةِ «طَبّاخِ البَحْرِ» وطَلَبَ من سْتيفِنْسُن أَنْ يُكْمِلَها، عَلى أَنْ تُنْشَرَ في حَلَقاتٍ مُسَلْسَلَةٍ. وأَبْدَلَ لويس عُنْوانَها وأَسْماها «جَزيرَةَ الكَنْزِ» وفي عامِ ١٨٨٣ نُشِرَتْ كَكِتابٍ، وكانَ هٰذا أَوَّلَ نَجاحٍ باهِرٍ حَقَّقَهُ الكاتِبُ. وقَدْ كانَ لويس مُولَعًا بِكِتابَةِ قِصَصٍ لِلْأَوْلادِ وأَرادَ أَنْ يَكونَ كِتابُهُ ذاكَ أَفْضَلَ ما رُوِيَ عَنِ القَراصِنَةِ. أَمّا لُويْد فكانَ أَوَّلَ صَبِيٍّ سَمِعَ عَنْ مُغامَراتِ طَبّاخِ البَحْرِ ذي السّاقِ الواحِدَةِ «لونْغ جُون سِلْفَر»، والصَّبِيَّ البَطَلِ «جيم هُوكِنْز»، وهُمَا الآنَ مَعْروفانِ في كُلِّ أَرْجاءِ العالَمِ.

ولَمّا أَقْبَلَ الشّتاءُ عادَ لويس وفاني ولُويْد إلى داڤُوس. إلّا أَنَّهُمْ في هٰذِهِ المَرَّةِ أَقاموا في كوخٍ وَحْدَهُمْ على الجَبَلِ وقَدْ فَضّلوا ذٰلِكَ على الإقامَةِ في الفُنْدُقِ. وكانَ في الكوخِ حُجْرَةٌ عُلْيا خُصِّصَتْ لِلُويْد. وكَمْ مِنْ حَرْبٍ شَنَّها لُويْد ولويس وهُمَا يَلْعَبانِ بالجُنودِ الدُّمى فَوْقَ خَريطَةٍ كَبيرَةٍ خُطِّطَتْ بِالطَّباشيرِ فَوْقَ أَرْضِ تِلْكَ الحُجْرَةِ.

وفي بَعْضِ الأَوْقاتِ كانَ لَعِبُهما يَدورُ في مَسْرَحٍ دُمْيَةٍ يُشْبِهُ المَسْرَحَ الَّذي كانَ لَدى لويس في طُفولَتِهِ، أو كانا يَلْعَبانِ بِماكينَةِ طِباعَةٍ صَغيرَةٍ. وقَدْ نَحَتَ لويس عَلى الخَشَبِ مَناظِرَ تُصَوِّرُ بَعْضًا مِنْ قَصائِدِهِ القَصيرَةِ



أمْضَوُا الصَّيْفَ مَرَّةً ثانِيَةً في اسْكُتْلَنْدا لكِنَّهُمْ لَمْ يَعودوا إلى داڤُوس عِنْدَما حَلَّ الشِّتاءُ، إذْ كانوا قَدْ سَئِموا حَياةَ التَّنَقُّلِ الدّائِمِ. لِذا اخْتاروا مَنْزِلًا على الرِّيڤْيِيرا الفَرَنْسِيَّةِ اسْتَقَرّوا فيهِ مدى عامٍ أَوْ أَكْثَرَ، وَصَفَهُ لويس فيما بَعْدَ بِأَنَّهُ كانَ مِنْ أَسْعَدِ أَيّامِ حَياتِهِ.

أَصْبَحَ لويس الآنَ كاتِبًا مَرْموقًا، وبَدَأَ القُرّاءُ في لَنْدَن ونيويُورْك يَعْرِفونَ مَعْنى الأَحْرُفِ ر. ل. س. وأَخَذَ في هٰذا الوَقْتِ يَضَعُ مَجْموعَةَ أَشْعارٍ لِلصِّغارِ أَهْداها لِمُرَبِّيَتِهِ كَمي في قَصيدَةٍ حَوَتْ هٰذَيْنِ البَيْتَيْنِ:

مِنَ الَّذي كانَ طِفْلًا سَقيمًا وصارَ رَجُلًا مُعافًى
إِلَيْكِ يا مُرَبِّيَتي كُتَيِّبي هٰذا الصَّغيرَ.

وعِنْدَما بَدا أَنَّ حَياةَ الأُسْرَةِ قَدْ مالَتْ إلى الاِسْتِقْرارِ حَضَرَ لِزِيارَةِ لويس بَعْضُ الأَصْدِقاءِ وصَحِبوهُ مَعَهُمْ إلى مَدينَةِ نيس. وهُناكَ أُصيبَ بِنَزْلَةِ بَرْدٍ شَديدَةٍ، واشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَطْأَةُ المَرَضِ حَتّى اضْطُرَّتْ فاني إلى اسْتِدْعاءِ ابْنِ عَمِّهِ بوب، فَلَحِقَ بِهِمْ. كانَ إِبْلالُ لويس مِنْ مَرَضِهِ بَطيئًا وكانَ عَلَيْهِ أَنْ يُلازِمَ الفِراشَ عِدَّةَ أَسابيعَ دونَ حَراكٍ. حَتّى الكَلامُ حُرِّمَ عَلَيْهِ بَعْضًا مِنَ الوَقْتِ. ضاقَ لويس بِحَياةِ المَرَضِ هٰذِهِ ولٰكِنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ أَنْ يَضَعَ قَصائِدَ جَديدَةً لِمَجْموعَتِهِ الَّتي أَسْماها «حَديقَةُ أَشْعارٍ لِلأَطْفالِ».



وقبلَ أنْ يَتَماثَلَ لويس لِلشفاءِ تَمامًا، انْتَشَرَ في البَلْدَةِ وَباءُ الكُوليرا واضْطُرَّ هُوَ وأُسْرَتُهُ، لِسُوءِ الحَظِّ، أَنْ يَعودوا إلى إنْكِلْترا. وأقاموا في بُورنْموث حَيْثُ اشْتَرى سْتيفِنْسُن الأَبُ مَنْزِلًا أَهْداهُ لِفاني دَليلَ اعْتِزازٍ ومَحَبَّةٍ.

أَطْلَقَ لويس اسمَ سْكِرِيفُور عَلى المَنْزِلِ الجَديدِ. وكانَ ذلِكَ اسْمَ إحْدى المَناراتِ الَّتي أَقامَها أَحَدُ أَعْمامِهِ قُرْبَ ساحِلِ اسْكُتْلَنْدا الصَّخْرِيِّ الغَرْبِيِّ. كانَ المَنْزِلُ قَريبًا مِنَ البَحْرِ مَبْنِيًّا مِنَ الطُّوبِ، يُغَطّي جُدْرانَهُ نَباتٌ مُتَسَلِّقٌ. وفَوْقَ حَديقَتِهِ تُحَلِّقُ طُيورُ النَّوْرَسِ. كَما كانَ يَتَوَسَّطُ الحَديقَةَ بُرْجٌ يُعَشِّشُ فيهِ الحَمامُ.

أَمْضى لويس السَّنَواتِ الثَّلاثَ الَّتي قَضاها في بُورنْموث شِبْهَ عَليلٍ، فَلَمْ يَرْحَلْ إلّا قَليلًا. وكانَ أَصْدِقاؤُهُ يَفِدونَ لِزِيارَتِهِ كَثيرًا فَلَمْ يَخْلُ البَيْتُ يَوْمًا مِنَ الزُّوّارِ.

وفي عامِ ١٨٨٦ كانَ لويس قَدْ أَلَّفَ ونَشَرَ قِصَّةً أُخْرى مُسَلْسَلَةً لِلأَوْلادِ دَعاها «المَخْطوفونَ» تَقَعُ مُغامَراتُها في مُرْتَفَعاتِ اسْكُتْلَنْدا. بَعْدَ ذلِكَ كَتَبَ كِتابًا في فَتْرَةٍ لَمْ تَتَعدَّ ثَلاثَةَ أَيّامٍ، اسْتوحى مَوْضوعَهُ مِنْ حُلْمٍ رَآهُ عَنْ طَبيبٍ تَوَصَّلَ إلى تَرْكيبِ مَزيجٍ تَمَكَّنَ بِواسِطَتِهِ أَنْ يُحَوِّلَ رَجُلًا طَيِّبًا إلى رَجُلٍ شِرّيرٍ، ودَعا هٰذا الكِتابَ «قَضِيَّةُ الدُّكْتور جيكل والمِسْتر هايْد». ولَقِيَ الكِتابُ لِتَوِّهِ نَجاحًا باهِرًا في كُلٍّ مِنْ إنْكِلْترا وأَميركا.



فِي شِتاءِ عامِ ١٨٨٦ انْتَقَلَ والِدا لويس إلى بُورنْموث لِيَعيشا بِالقُرْبِ مِنْ وَلَدِهِما. وكانَ والِدُهُ قَدْ أَصْبَحَ هَرِمًا يَجِدُ المُتْعَةَ في رِفْقَةِ ابْنِهِ. وماتَ الأَبُ في أَوائِلِ العامِ التّالي، وأَحْدَثَ مَوْتُهُ تَحَوُّلًا كَبيرًا في حَياةِ الأُسْرَةِ.

وكان لويس وفاني قَدْ أَمْضَيا السَّنَواتِ الثَّلاثَ الأَخيرَةَ في إِنْكِلْترا كَيْ يَكونا عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ الرَّجُلِ المُسِنِّ. والآنَ صارَ بِإِمْكانِ الأُسْرَةِ أَنْ تَعيشَ في مُناخٍ يَتَناسَبُ وصِحَّةَ لويس، في مَكانٍ يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ مَعَهُما فيهِ أُمُّ لويس العَجوزُ. واسْتَقَرَّ الرَّأْيُ عَلى أَنْ يَزوروا أَميركا لِلْبَحْثِ عَنْ مُنْتَجَعٍ جَبَلِيٍّ.

أَقامَ لويس في لَنْدَن حَفْلَ وَداعٍ لِأَصْدِقائِهِ المُقَرَّبينَ، وكانَ الجَميعُ يَتَوَقَّعونَ عَوْدَتَهُ في طَرْفِ عامٍ. وقَدْ رافَقَهُ صَديقُهُ سيدني كالْفِن ساعَةَ السَّفَرِ ولَمْ يَتْرُكْهُ إِلّا بَعْدَ أَنْ شاهَدَ السَّفينَةَ تَتَّجِهُ إلى عُرْضِ البَحْرِ. وكانَتْ تِلْكَ السَّفينَةُ لِنَقْلِ الخَيْلِ والماشِيَةِ. أَمّا أُمُّ لويس فَقَدِ اسْتَمْتَعَتْ بِالرِّحْلَةِ، وكَتَبَتْ في خِطابٍ لَها تَقولُ:

«إِنَّهُ لَمِنَ المُمْتِعِ حَقًّا أَنْ تَرى الخَيْلَ تَصْعَدُ عَلى ظَهْرِ الباخِرَةِ، وكَأَنَّما نَحْنُ في سيرْكٍ.»

ومَكَثوا في نيويورك بَعْضَ الوَقْتِ، حَيْثُ اسْتُقْبِلَ لويس اسْتِقْبالَ عُظَماءِ الكُتّابِ. كانَ مَعْروفًا بِأَنَّهُ مُؤَلِّفُ قِصَّةِ «الدُّكْتور جيكل والمِسْتر هايْد». ومِنْ نيويورك رَحَلوا إلى جِبالِ الأَديرُونْداك

هُناكَ أَقاموا في مَنْزِلٍ خَشَبِيٍّ عَلى شَواطِئِ بُحَيْرَةِ ساراناك بِالقُرْبِ مِنْ مَصَحٍّ لِلْمَصْدورينَ الَّذينَ يُعانونَ مَرَضَ لويس نَفْسَهُ. وذَهَبَتْ فاني إلى كَنَدا لِتَأْتِيَ بِمَجْموعَةٍ مِنْ ثِيابِ الفَرْوِ كانوا في أَشَدِّ الحاجَةِ إِلَيْها أَثْناءَ أَيّامِ البَرْدِ القارِسِ الَّتي وافَتْهُمْ فيمَا بَعْدُ.

وما شَعَرَ بِهِ لويس مِنْ مُتْعَةٍ أَثْناءَ رِحْلَتِهِ عَبْرَ المُحيطِ الأَطْلَسِيِّ جَعَلَهُ يَحِنُّ إلى العَوْدَةِ إلى التَّرْحالِ. فَلَمّا سافَرَتْ فاني لِزِيارَةِ أَقارِبِها في كَليفورْنيا، طَلَبَ مِنْها أَنْ تَسْتَعْلِمَ لَهُ في سان فرَنْسيسْكو عَنْ إِجْراءاتِ اسْتِئْجارِ يَخْتٍ لِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ. وبَعْدَ مُضِيِّ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ أَبْرَقَتْ فاني إِلَيْهِ تَقولُ إِنَّ اليَخْتَ كاسْكو يُمْكِنُ اسْتِئْجارُهُ لِرِحْلَةٍ بَيْنَ جُزُرِ البِحارِ الجَنوبِيَّةِ. وأَبْرَقَ لَها لويس بِالمُوافَقَةِ عَلى أَنْ يَدْفَعَ تَكاليفَ الرِّحْلَةِ مِنَ النُّقودِ الَّتي وَرِثَها عَنْ أَبيهِ.

وكانَ اليَخْتُ يَمْلِكُهُ أَحَدُ أَثْرِياءِ كَليفورْنيا، وكانَ رائِعًا شامِخَ القِلاعِ أَبْيَضَ الشِّراعِ، نُحاسُهُ يَلْمَعُ كَالذَّهَبِ، وبِهِ بَهْوٌ فَخْمٌ. وأَخَذَ قُبْطانُ اليَخْتِ عَلى عاتِقِهِ مُهِمَّةَ القِيامِ بِالرِّحْلَةِ ومَعَهُ خَمْسَةُ بَحّارَةٍ مِنْ بَيْنِهِم طَبّاخٌ صينِيٌّ.

وفي حَزيرانَ (يونيه) ١٨٨٨ أَبْحَروا بِاليَخْتِ مُتَّجِهينَ إلى جَزائِرِ مَركيز وهِيَ تَبْعُدُ ٣٠٠٠ ميلٍ جَنوبًا.





سُرَّ ستيفِنْسُن لِوُجودِهِ مَرَّةً أُخْرى فَوْقَ البِحارِ ، وشَعَرَ أَنَّهُ عَلى أَتَمِّ ما يَكونُ مِنَ الصِّحَّةِ ، فلَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ عَليلٌ ، بَل شَعَرَ بِهِمَّةٍ ونَشاطٍ كَأَنَّهُ أَحَدُ أَبْطالِ قِصَصِهِ . ولَبِثَ الجَوُّ صَحْوًا والبَحْرُ هادِئًا حَتَّى وَصَلوا مُنْتَصَفَ الطَّريقِ إِلى جُزُرِ مَرْكيز . وفَجْأَةً ، وبِدُونِ سابِقِ إِنْذارٍ ، تَجَمَّعَتِ السُّحُبُ ، وهَبَّتْ عَلى اليَخْتِ العَواصِفُ ، وهَطَلَتْ أَمْطارٌ استِوائِيَّةٌ غَزيرَةٌ ، وثارَ البَحْرُ وهاجَ .

لَمْ يَشْعُرْ لويس ولا أُمُّهُ بِدُوارِ البَحْرِ . أَمّا فاني فقَدْ وَقَعَتْ فَريسَةً لَهُ ، ولكِنَّها تَحَمَّلَتْهُ بِصَبْرٍ وسُكوتٍ لِمَا رَأَتْهُ بادِيًا عَلى زَوْجِها مِنْ دَلائِلِ الصِّحَّةِ والتَّقَدُّمِ . وكانَتْ تَرْتَدي مَلابِسَ واسِعَةً فَضْفاضَةً وتَسيرُ حافِيَةَ القَدَمَيْنِ ، بَيْنَمَا كانَ لويس يَرْتَدي صِدارًا وبَنْطلونًا . أَمّا والِدَتُهُ فلَمْ تَتَخَلَّ عَنْ وَقارِها واحْتَفَظَتْ بِزِيِّها الَّذي كانَتْ تَرْتَديهِ في أَدِنْبَرَة بِما في ذٰلِكَ طاقِيَّةُ الأَرامِلِ . وفي المَساءِ كانوا جَميعًا يَجْلِسونَ عى ظَهْرِ اليَخْتِ يَرْقُبونَ غُروبَ الشَّمْسِ .

وبَعْدَ سِتَّةِ أَسابيعَ مَضَتْ في عُرْضِ البَحْرِ ، لاحَتْ لَهُمْ جَزيرَةُ نُوكُوهِيڤا . وقَدْ كَتَبَ لويس في يَوْمِيّاتِهِ كَيْفَ أَنَّ الجزيرَةَ بَدَتْ لَهُمْ في أَثْناءِ اقْتِرابِهِمْ مِنْها فَجْرًا مُومِضَةً تَحْتَ أَشِعَّةِ شُروقِ الشَّمْسِ . ومُنْذُ ذٰلِكَ اليَوْمِ هامَ لويس بِحُبِّ جُزُرِ البَحْرِ الجَنوبِيِّ



وفي فَتْرَةِ العامَيْنِ التّالِيَيْنِ زارَ لويس وأُسْرَتُهُ مَجْموعاتٍ عَديدَةً مِنْ جُزُرِ المُحيطِ الهادي ، وأَبْحروا بالبَحْثِ كاسْكو إلى تاهيتي وهَواي ، ومِنْها أَقْلَعوا عَلى ظَهْرِ سَفينَةٍ تِجارِيَّةٍ تُدْعى الإكْواتور (أي خطّ الاسْتِواء) إلى جَزائِرِ جِلْبِرْت وساموا ، ثُمَّ أَبْحَروا عَلى ظَهْرِ سَفينَةٍ تِجارِيَّةٍ أُخرى تُدْعى جانيت نِيكُول في رِحْلَةٍ اسْتَغْرَقَتْ أَرْبَعَةَ شُهورٍ زاروا خِلالَها ثَلاثًا وثَلاثينَ جَزيرَةً.

بَعْدَ مُرورِ عام ، عادَتْ أُمُّ لويس إلى اسْكُتْلَنْدا. أمّا لويس وفاني فقَدْ أَرْجَآ العَوْدة لِما بَدا مِنْ تَحَسُّنٍ واضِحٍ في حالَةِ لويس الصِّحِّيَّةِ. وكانَ حينَذاكَ مُنْهَمِكًا في تَدْوينِ وَصْفِ رِحْلاتِهِ. كَما كانَ يَعْتَزِمُ كِتابَةَ تاريخِ جُزُرِ المُحيطِ الهادي.

حازَتِ الجَزيرَةُ ساموا إعْجابَهُما وعَقَدا النِّيَّةَ عَلى شراءِ قِطْعَةِ أَرْضٍ يُقيمانِ فَوْقَها مَنْزِلًا. وكانَ في نِيَّتِهِما أَنْ يَكونَ مَنْزِلًا لِلْإِقامَةِ المُؤَقَّتَةِ يَشْحَآنِ إِلَيْهِ بَعْدَ رِحْلَتِهِمْ إلى الوَطَنِ ، ولٰكِنَّهُما عادا وقَرَّرا أَنْ يَجْعَلا ساموا مَقَرَّهُما الدّائِمَ. وكَتَبَ لويس لِأَصْدِقائِهِ يَقولُ : «إِنَّهُ لَمِنَ الصَّعْبِ أَنْ أَعودَ إلى إِنْكِلْترا وإلى الفِراشِ.»

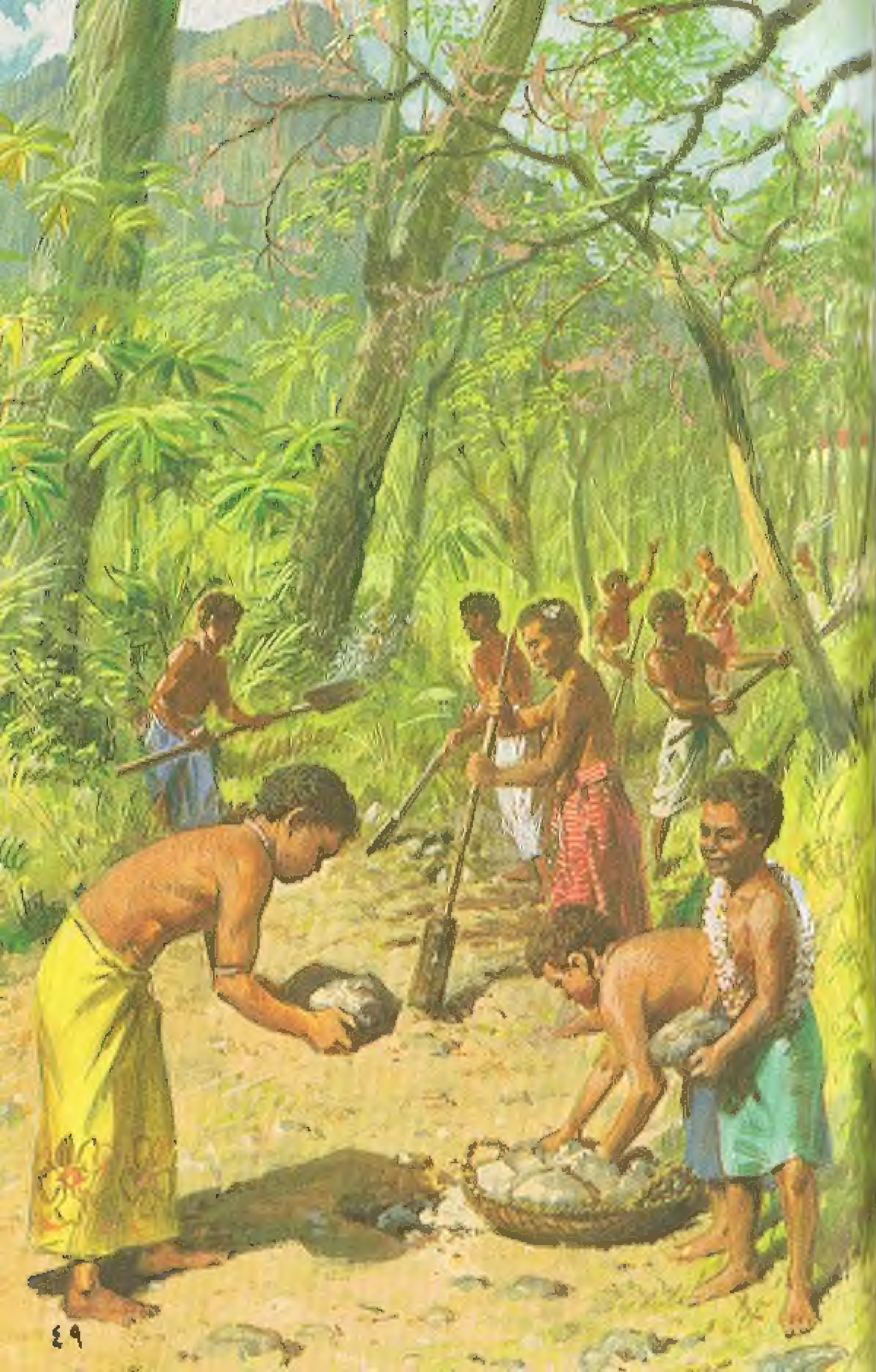
وكانَتْ مِساحَةُ رُقْعَةِ الأَرْضِ تَرْبو على ٣٠٠ فَدّانٍ وتَقَعُ عَلى سَفْحِ جَبَلِ ڤيا المُشْرِفِ عَلى ميناءِ إيبيا ، أَهَمِّ مَوانِئِ ساموا. وكانَتِ الأَنْهارُ والشَّلّالاتُ تَجْري في سُفوحِ الجَبَلِ ، ولِذا دَعَوا المَنْزِلَ ڤيليما أيْ الجَداوِلَ الخَمْسَةَ.



أقامَ لويس وفاني أوّلَ الأَمْرِ مُؤَقّتًا في مَنْزِلٍ خَشَبِيٍّ كَمَا فَعَلا في سِلْفَرادو. ومِنْهُ كانا يُشْرِفان عَلى بِناءِ مَنْزِلِهِمَا الدّائِمِ فَوْقَ هَضْبَةٍ تَعْلو ٢٠٠ مِتْرٍ فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ. واشْتَمَلَ المَنْزِلُ الجَديدُ عَلى بَهْوٍ كَبيرٍ يَشْغَلُ الطّابَقَ الأَسْفَلَ بأَكْمَلِهِ، وقَدْ كُسِيَتْ جُدْرانُهُ بِأَلْواحِ الخَشَبِ الأَحْمَرِ. وكانَ لِلْمَنْزِلِ شُرْفَةٌ تَمْتَدُّ عَلى مَدى واجِهَتِهِ كُلِّها واحْتَوى الطّابَقُ العُلْوِيُّ مِنْهُ عَلى خَمْسِ غُرَفِ نَوْمٍ ومَكْتَبَةٍ. وأضافَ لويس فيمَا بَعْدُ حُجْرَةَ عَمَلٍ بَناها في واجِهَةِ المَنْزِلِ فَوْقَ الشُّرْفَةِ، وكَأَنَّها وَكْرٌ مِنْ أَوْكارِ الطُّيورِ. وكانَ الكُلُّ في المَنْزِلِ يسيرونَ حُفاةً، والسُّكونُ يُخَيِّمُ في كُلِّ مَكانٍ ولَيْسَ هُناكَ مِنْ صَوْتٍ يَقْطَعُ السُّكونَ سِوى صَوْتِ البَحْرِ وتَغْريدِ الطُّيورِ. لَقَدْ كانَ حَقًّا مَنْزِلًا مِثالِيًّا لإِقامَةِ الكاتِبِ.

كان قَلَمُ لويس سَيّالًا. لَمْ يَكُفَّ لويس عَنِ الكِتابَةِ أَثْناءَ تَرْحالِهِ قَطُّ، سَواءٌ أَكانَ في البَرِّ أَوْ في البَحْرِ، صَحيحًا أَمْ سَقيمًا. كانَ دائِمًا يُدَوِّنُ أَفْكارَهُ ويُتَمِّمُ قِصَصَهُ وأَشْعارَهُ. وفي مَنْزِلِهِ فَوْقَ الجَزيرَةِ أَقْبَلَ عَلى الكِتابَةِ بِنَشاطٍ فائِقٍ. بَلْ إِنَّهُ وَجَدَ مُتَّسَعًا مِنَ الوَقْتِ لِكِتابَةِ رَسائِلَ مُنْتَظَمَةٍ إلى أَصْدِقائِهِ.

ولَكِنَّ الحَنينَ إلى الوَطَنِ لَمْ يُفارِقْهُ قَطُّ. وكانَ يَتَخَيَّلُ نَفْسَهُ قَدْ عادَ إلى هُناكَ حينَ كَتَبَ عَنْ جِبالِ كاتْرِيُونا وسُوانسْتون.



كانَ لويس يَكْتُبُ في أَوْقاتٍ مُحَدَّدَةٍ ثُمَّ يَسْعَدُ بَقِيَّةَ اليَوْمِ بِالاِشْتِراكِ في الحَياةِ المَنْزِلِيَّةِ حَوْلَهُ. وكانَتْ أُمُّهُ قَدْ عادَتْ إلى الجَزيرَةِ، أَمَّا لويد فكانَ لا يَزالُ مَعَهُما. وقَدِ انْضَمَّتْ إلى الأُسْرَةِ إيزوبل شَقيقَةُ لويد وزَوْجُها وابْنُها.

أَمَّا فاني فقَدْ عُنِيَتْ بِفِلاحَةِ الأَرْضِ المُحيطَةِ بِالمَنْزِلِ يُعاوِنُها في ذٰلِكَ بَعْضُ السُّكّانِ المَحَلِّيِّينَ المُخْلِصينَ.

شُحِنَ أَثاثُ مَنْزِلِ سْكِريفور بَحْرًا إلى المَنْزِلِ الجَديدِ. فكانَ الزّائرون يَجْلِسونَ إلى مَوائِدَ غَطَّتْها مَفارِشُ مِنَ الكَتّانِ تَتَلأْلأُ فَوْقَها أَواني الفِضَّةِ والزُّجاجِ. كَمَا كانَ يُطِلُّ فَوْقَ هٰذا كُلِّهِ تِمْثالٌ نِصْفِيٌّ لِجَدِّ لويس.

في البَدْءِ لَمْ يَكُنِ الطَّريقُ إلى ڤيليمَا مُعَبَّدًا. ولٰكِنْ سُرْعانَ ما شَقَّ السُّكّانُ المَحَلِّيّونَ طَريقًا واسِعًا أَطْلَقوا عَلَيْهِ اسْمَ «طَريق القُلوبِ المُحِبَّةِ». وقَدْ تَفانى أَهالي جَزيرَةِ ساموا في مَحَبَّةِ توسيتالا (راوِيَةِ الحِكاياتِ) وفي خِدْمَتِهِ. وأَخْفى لويس حَنينَهُ لِوَطَنِهِ ولَمْ يُفْصِحْ عَنْ ذٰلِكَ إلّا في رَسائِلِهِ لِأَصْدِقائِهِ وفي أَشْعارِهِ. وقَدْ كَتَبَ:

اللّٰهُمَّ هَبْني قَبْلَ مَوْتي أَنْ أَعودَ لِأَزورَ تِلالَ بَلَدي
وأَسْمَعَ فَوْقَ قُبورِ الشُّهَداءِ صَوْتَ الطُّيورِ،
ثُمَّ لا أَسْمَعَ أَيَّ نِداءٍ.

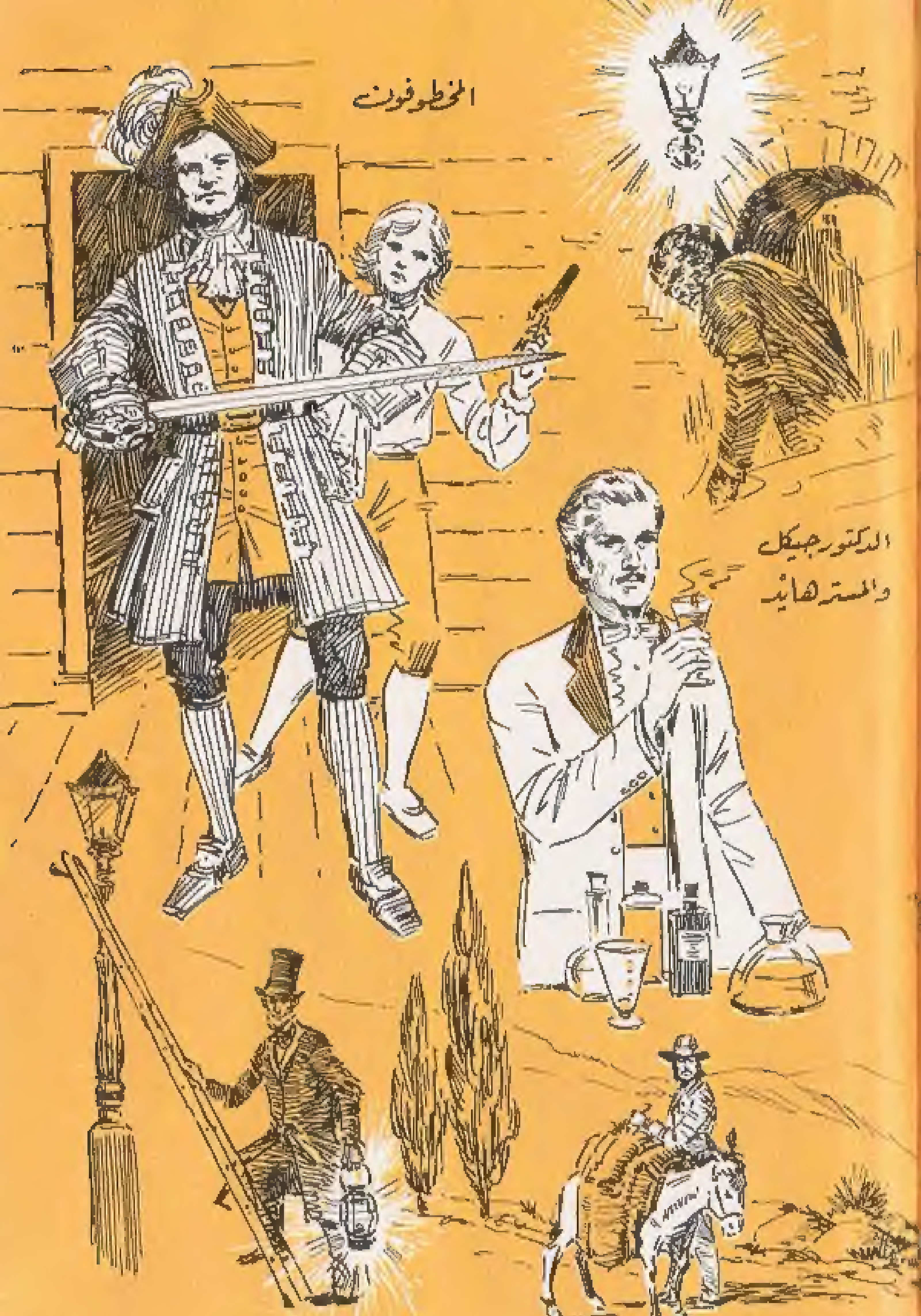
في عامِ ١٨٩٤ بَدَأَ لويس كِتابَةَ رِوايَةٍ عَنِ اسْكُتْلَنْدا بِعُنْوانِ «هَويسُ هِرْميسْتُون». وذاتَ مَساءٍ في شَهْرِ كانونِ الأَوَّلِ (ديسَمْبر) ، بَعْدَ أَنْ أَمْضى مُعْظَمَ يَوْمِهِ يَكْتُبُ الفَصْلَ التّاسِعَ مِنَ الرِّوايَةِ ، ذَهَبَ إلى فاني لِيَتَحَدَّثَ مَعَها ، ثُمَّ تَرَكَها لَحْظَةً وعادَ إِلَيْها يَضَعُ يَدَيْهِ عَلى رَأْسِهِ ، ثُمَّ سَقَطَ بِجانِبِ فاني. فَأَعانَتْهُ زَوْجَتُهُ عَلى الجُلوسِ عَلى مَقْعَدٍ ، إلّا أَنَّهُ كانَ فاقِدَ الوَعْيِ.

لَمّا حَضَرَ الطَّبيبُ أَشارَ إلى أَنَّ في المُخِّ جَلْطَةً ، وأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ أَمَلٍ في الشِّفاءِ. وماتَ لويس في اليَوْمِ التّالي في ٣ كانونِ الأَوَّلِ (ديسَمبر) ، وكانَ عُمْرُهُ حينَئِذٍ أَرْبَعَةً وأَرْبَعينَ عامًا. دُفِنَ في اليَوْمِ التّالي في قِمَّةِ جَبَلِ ڤيا. كانَ لَفيفٌ مِنْ أَهالي البَلْدَةِ قَدْ أَمْضَوْا لَيْلَتَهُمْ في تَعْبيدِ طَريقٍ إلى قِمَّةِ الجَبَلِ وعَمَلِ مَقْبَرَةٍ عَلى ارْتِفاعِ ٤٥٠ مِتْرًا فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ. وعَظُمَ حُزْنُ أَهْلِهِ وأَصْدِقائِهِ.

وبَعْدَ حينٍ أُقيمَ ضَريحٌ مُرْتَفِعٌ فَوْقَ القَبْرِ نُقِشَ عَلى جانِبَيْهِ كَلِماتُ قَصيدَةٍ كانَ قَدْ كَتَبَها لويس بِنَفْسِهِ ، قَبْلَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، عِنْدَما لَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُ أَنَّهُ سَيَعْبُرُ البِحارَ الجَنوبِيَّةَ أَوْ يَحْلُمُ أَنَّهُ سَيُدْفَنُ في ساموا. وبَعْضُ أَسْطُرِ هٰذِهِ القَصيدَةِ تَقولُ :

هُنا يَرْقُدُ البَحّارُ حَيْثُ أَراد
ناعِمًا في وَطَنِهِ بَعْدَ أَنْ عاد
ويَرْقُدُ الصَّيّادُ بَعْدَ أَنْ صاد




المخطوفون
الدكتور جيكل
والمستر هايد
مُوقد المصابيح
رحلات على الحمار

سيّد بالنتري
جزيرة الكنز
كبي (ص٤)
رحلة داخليّة

السِّلْسِلَةُ التَّاريخيَّة

Series 561 Arabic

في سِلسِلة كُتب المطالعة الآن أكثر من ٢٥٠ كتابًا تتناول ألوانًا
مِن المَوضوعات تناسِب مختلف الأعمار. اطلب البيان الخاص بها مِن:

مكتبة لبنان - ساحة رياض الصّلح - بيروت